﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: 106]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شناعةُ مَن يكفر بقلبه ولسانه معًا

لمّا ذكر تعالى في الآية السابقة الذين لا يؤمنون مطلقًا؛ أتبعهم هنا بذكر صنفٍ منهم، هم أشدّ كفرًا؛ فقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ الآية[1].

"ولمّا عَظَّم الذكر الحكيم تهديدَ الكافرين في الآيات السابقة ذكر في هذه الآية تفصيلًا في بيان مَن يكفر بلسانه لا بقلبه، ومَن يكفر بلسانه وقلبه معًا"[2]، وعقَّب بالوعيد على الكفر بالقلب واللسان بعد الإيمان بقوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُكۡرِهَ﴾: "الكُرْهُ: عدم الرضا، أو عدم الاختيار، ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: 83]، أي: راضين أو غير راضين، والكره: المكروه أو ما تصحبه مشقة ... والإكراه: الإجبار أو الإرغام، أي: حمل الشخص على أن يعمل عملًا وهو كاره له، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]"[3]، والكُرْه "على ضربين؛ أحدهما: ما يُعاف من حيث الطّبع، والثّاني: ما يُعاف من حيث العقل أو الشّرع، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 216]، أي: تَكْرَهونَهُ من حيث الطّبع، ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 314.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 273.
(3) حسن الجَمَل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (كره).

لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 216]؛ أنه لا يجب للإنسان أن يعتبر كَراهيَتَهُ للشيء أو محبّته له حتى يعلم حاله"[1]، والمعنى في الآية: أُرْغِمَ على النُّطْقِ بالكفرِ فتَلفَّظَ به؛ خَوْفًا من هَلاكِه.

2) ﴿مُطۡمَئِنُّۢ﴾: "اطْمأنّ الرّجل، واطمأنّ قَلْبُهُ، واطمأنَّتْ نَفْسُه: إذا سَكَنَ واستأنس، والمُطْمَئِنُّ من الأرض، أرضٌ مُنْخَفِضة"[2] و"الطُّمَأْنِينَةُ والاطْمِئْنانُ: السّكونُ بعد الانزعاج، قال تعالى: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ [الأنفال: 10]"[3]، "ومن المجاز: في فلان وقار وطمأنينة وتطامن، واطمأنّ قلبه على الإيمان"[4]، والمعنى في الآية: موقنٌ بحقيقةِ الإيمان.

3) ﴿شَرَحَ﴾: "الشّينُ والرّاءُ والحاءُ أُصلٌ يَدُلُّ عَلَى الفَتْحِ والبَيانِ، مِنْ ذَلِكَ: شَرَحْتُ الكَلامَ وغَيْرَهُ شَرْحًا، إذا بَيَّنْتَهُ، واشْتِقاقُهُ مِنْ تَشْرِيحِ اللَّحْمِ"[5]، و"أصل الشَّرْحِ: بَسْط اللّحم ونحوه، يقال: شَرَحْتُ اللّحم، وشَرَّحْتُهُ، ومنه: شَرْحُ الصّدر، أي: بسطه بنور إلهيّ وسكينة من جهة اللّه سبحانه وروح منه، قال اللّه تعالى: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25]، وشرح المُشْكِل من الكلام: بسطُه وإظهار ما يَخفى من معانيه"[6]، والمعنى في الآية: اعتَقَدَ الكفر.

4) ﴿صَدۡرًا﴾: "الصّادُ والدّالُ والرّاءُ أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما: يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الوِرْدِ، والآخِرُ: صَدْرُ الإنْسانِ وغَيْرُهُ، فالأوَّلُ قَوْلُهُم: صَدَرَ عَنِ الماءِ، وصَدَرَ عَنِ البِلادِ، إذا كانَ وَرَدَها ثُمَّ شَخَصَ عَنْها ... وأمّا الآخَرُ فالصَّدْرُ لِلْإنْسانِ، والجَمعُ: صُدورٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]"[7]، والمعنى في الآية: طابَتْ نفسُه بالكفر.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى عن شناعة حال مَن كفر باللّه تعالى بعد إيمانه فعليه غضبٌ من اللّه

(1) الرّاغب، المفردات: (كره).
(2) الخليل، العين: (طمن).
(3) الرّاغب، المفردات: (طمن).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طمن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرح).
(6) الرّاغب، المفردات: (شرح).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدر).

ﷻ، ولهم عذاب عظيم، إلا مَن أُكرِه على النطق بكلمة الكفر فتكلَّم بلسانه، وخالف قلبُه بالإيمان لينجو بذلك مِن عدوّه، فلا حرج عليه؛ لأنَّ الله سبحانه إنما يأخذُ العباد بما عقدتْ عليه قلوبُهم، لكن من كان منفسحَ الصَّدر بالكفر فاختاره على الإيمان وتكلَّم به طائعًا فهو مرتدٌّ عن الإسلام، فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم[1].

الاضطهاد الشّديد رُخْصةٌ للكفرِ باللّسان دون القلب

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى الرخصةِ في نطق كلمة الكفر حالَ التعذيب الذي لا يطاقُ؛ بشرطِ اطمئنانِ القلب إلى الإيمان وعدمِ انشراح الصَّدْرِ بكلمة الكفر، معَ إجماعِ العلماءِ على أنَّ من أُكره على الكفر فاختار القتلَ؛ أنه أعظمُ أجرًا عند الله ممَّن اختارَ الرُّخصة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فصل هذه الآية عمّا قبلها:

أعظم الكفر الكفرُ بعد الإيمان؛ لعلمهم به، ثمّ عدولهم عنه

فُصِلت جملة ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لشبه كمال اتصالها بها، لأنّ الأولى تُقرِّر أن الكافرين هم الذين يفترون الكذب، وأنهم هم الكاذبون لا رسول الله ﷺ الذي يزعمون أنه افترى القرآن الكريم.

وجاءت الثانية لِتُبَيِّن مصيرَهم، وتُقَرِّرَ غضب الله تعالى عليهم، ولِتُجيبَ عن سؤالٍ قد يَخطر في ذهن المتلقّي يقول: وما مصيرهم؟ أو: وما جزاء هؤلاء المفترين الكاذبين؟ فجاءت هذه جوابًا: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ فالكلام استئناف بياني.

التّعدُّد الإعرابيُّ لـ ﴿مَن﴾، وأثر ذلك في المعنى:

تعدّدت الوجوه الإعرابية في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾؛

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 86، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450، ومجموعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 279.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 444، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 160.

الكذبُ على الله وتــركُ الإيـمـان معبرٌ الكفر

فمنهم من قال "﴿مَن﴾ في موضع رفع على البدل مِنَ الكاذِبينَ، ومُفَسِّر عن الكاذبين، ولا يجوز أن يكون ﴿مَن﴾ رَفعًا بالابتداء؛ لأنه لا خبرَ ههنا للابتداء، لأنَّ قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، ليس بكلام تامٍّ، وبعده: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فقوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ خبرُ ﴿مَّن﴾ التي بعد ﴿وَلَٰكِن﴾"[1].

أو "﴿مَن كَفَرَ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، على أن يجعل ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ اعتراضًا بين البدل والمبدَل منه، والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه"[2]، أو "﴿مَن كَفَرَ﴾ شرطية مبتدأ، وكذلك ﴿مَّن شَرَحَ﴾، و﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾: جواب عن الأولى والثانية؛ لأنهما بمعنى واحد، ويكون جوابًا للثانية، وجواب الأولى: محذوف يدلّ عليه جواب الثانية"[3].

بلاغة المقابلة بين هذه الآية وسابقتِها:

صـورةُ المقابَلة تُستكملُ بذكر الـفـريـقـين في الدنيا والآخرة

جاءت هذه الآية مبيِّنةً مصير الفريق المقابل للمؤمنين المذكورين في قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: 97]، فهؤلاء يسعدون في الحياة بالدين الحنيف، ويستضيئون بأنوار القرآن والسنة، أما أولئك الذين ذاقوا طعم الإيمان ثم انتكسوا فعليهم غضب من ربهم، فيحيَوْن حياةَ الظلام، ثم يوم القيامة يُصَبُّ عليهم عذاب عظيم لا يمكن تصوُّر فظاعته؛ فبذكر الآيتين تُستكمل صورة المقابَلة بين الفريقين في الدنيا والآخرة.

فـ "مضمون ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ مقابلٌ لمضمون

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 219.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 636.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 165.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: 97]، فحصل الترهيبُ بعد الترغيب"[1].

معنى التّعبير بـ ﴿مَن﴾ في الكفر دون غيرها:

إفادةُ الشّمول والعموم

آثر النظمُ الكريم التعبيرَ بـ ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ دون غيرها؛ لأنها أعمُّ، فتشمل: المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، وليس كذلك أسماء الموصولات: (الذي) أو (التي) أو (الذين) أو (اللاتي) ... إلخ؛ فـ ﴿مَن﴾ إذن رمزٌ إيجاز في اللفظ ورحابةٍ في المعنى، ثم إنها تتناسب مع ﴿مَنْ﴾ بعدُ في قوله تعالى: ﴿مَنْ أُكْرِهَ﴾؛ لذا كانت الأنسب للسياق والمقام.

سِرُّ التّعبير بالكفر دون الشّرك:

الكافرُ ضالٌّ والمشرك أقربُ في رجاء الإيمان منه

الكافرون لا يؤمنون بالله تعالى أصلًا، أما المشركون فيؤمنون بالله ﷻ ويشركون به آلهة مزعومة، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، وأخبر سبحانه عنهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: 106]، فالمشرك مختلٌّ العقيدة يُرجى له التخلُّص من الشرك لما لديه من خلفية إيمانية يمكنه البناء عليها، والكافر ضالٌّ بالكلية، وإن كان كلاهما في ميزان التوحيد على غير المراد.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿كَفَرَ﴾:

تحقّق صفةِ الكفر ورسوخُها بالمرتدّ

وفي إيثار التعبير بالماضي ﴿كَفَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ﴾؛ إشارة إلى تحقُّق صفة الكفر ورُسوخها في قلب ﴿مَن كَفَرَ﴾، فصار من البعيد نجاتُه من الكفر؛ إذ صار جديرًا بالخِذْلان؛ لأنه عرف وذاق، وتبين أنوار الآيات، ثم تركها مرتدًّا عنها من أجل الدنيا.

سِرُّ التّعبير بالفعليّة دون الاسميّة:

آثر النظمُ الكريم التعبير بالفعلية التي تدلُّ على التجدّد والحدوث، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 293.

المناسب لهذا السياق الذي يبيّن حالة من تجدّد كفره بعد إيمانه؛ بخلاف التعبير بالاسمية (الكافر) الذي يفيد الثبوت والاستمرار، ولا ينطبق ذلك على هذه الحالة؛ لأنّ كفره لم يتغير؛ فالوصف ثابت له ومستمرٌّ معه.

بيانُ حالِ من تجدّدَ كفره بعد إيمانه

دلالةُ تقييد الكفر ﴿بِٱللَّهِ﴾ تعالى:

آثر النظمُ الكريم تقييد الكفر بلفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، مع أنّ الكفر إذا أُطلِق انصرف إلى الكفر بالله ﷻ؛ فكان يمكن الاكتفاء بذكر الكفر دون ذكر متعلَّقه، لكنه آثر إظهار القيد "تعظيمًا لأمر هذه الردة؛ لأنه ليس كفرًا بأيّ أحد، إنه كفر ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ ولذا فليحذر مَن يُفكِّر في مثل هذا الأمر"[1]؛ ففي هذا الإظهار زيادةُ تشنيعٍ على هؤلاء الكافرين، وعظيم جرمهم في حق (الله) تعالى؛ لأنه خالقهم ورازقهم، ومنزِل هذا الكتاب الذي يقفون أمامه عاجزين عن مجاراته؛ لذلك رتّب العقاب الشديد لهم بقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الكفر (بالله) تعالى جريمة عظيمة

عِلّةُ تقييد الكفر بالأُلوهيّة دونَ الرّبوبيّة:

جاء التّعبير القرآنيّ بتقييد الكفر بلفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، دون تقييده بلفظ الربوبية بأن يقول: (من كفر بربه)؛ لأن المقام هنا مقام كفر بالألوهية، لا مقام ربوبية وامتنان بعطايا حسية؛ لذلك ناسب أن يكون الإزراءُ عليهم بتعليق الكفر بالألوهية لا الربوبية؛ فقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، دون: من كفر بربه، ويؤكد هذا أنّ السياق بطوله مُتَّسق مع ذكر الألوهية؛ إذ تقول الآيات قبلها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، وبعدها: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾.

السّياق عنِ الكفر بالألوهيّة فاتّسق القيدُ معه

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.

معنى ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾:

مجاوزةُ الإيمان محضُ جحود ومكايدة

تَدلُّ ﴿مِنۢ﴾ في الاستعمال القرآني على معانٍ عديدة منها: التعليل، وابتداء الغاية، والمجاوزة؛ لأنه قد جاوز الإيمان وتخطّاه بعدما رآه، وابتدأ وانطلق إلى الكفر منه، واستحقّ بذلك ما جاء خبرًا في آخر الآية الكريمة، ويكون المعنى في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، أي: من بعد تَحقُّق إيمان هذا الذي كفر، وأنه قد تبيّن له الحق، وأنّ هذا الكفر ليس إلا محض جحود ومكايدة ومكابرة، استحق به الجزاء المذكور في الآية بقوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

دلالة الظّرفية:

تحقّق الإيمان في قلب المرتدّ قبل ارتداده

يدلُّ الظّرف ﴿بَعۡدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ على تَحقُّق الإيمان في قلب هذا المرتدّ قبل ارتداده؛ فذِكْرُ الإيمان هنا ليس له بل عليه، والمقصود بالظرفية ﴿بَعۡدِ﴾ تأكُّد رؤية المرتدّ صدقَ الرسول ﷺ وصدقَ نسبة القرآن الكريم الذي جاء به الرسول ﷺ إلى ربه ﷻ، ومع ذلك كفر بالله وآياته ورسوله ﷺ.

وكذلك يُرى أنَّ في هذه الظرفية "ترشيحًا لطريق الاستدراج، وتحسيرًا لهم على ما فاتهم من التصديق، وما اقترفوه من نسبته ﷺ إلى الافتراء"[1].

سِرُّ التّعبير بالاسميّة ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ دون الفعليّة:

زيادةُ قُبحِ نُكوص الكافر بعد معرفته الحقَّ

التعبير بالاسمية في ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ يتّسق مع القيدِ بالظرف ﴿بَعۡدِ﴾؛ إذ التعبير بالاسميّةِ يدلّ على تحقّق الإيمانِ، ويؤكّد حصوله في نفس هذا الكافر المرتدّ، وأنه قد خالط قلبه، وترسّخ في نفسه لحظةً ما، وأن بصره بصدق الآيات الدالة على نبوة النبي ﷺ قد تغلغل فيها،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 471.

وأنه لم يَصدُر إلى الكفر إلا عن يقينٍ - لا يخالطه شكّ - بأنّ الدين حق، وأنّ القرآن فوق طاقة البشر، وكل ذلك يزيد كفرَه وجحوده قبحًا وجُرمًا.

دلالة إضافةِ الإيمان إلى ضمير الكافر:

كفرُ المرتدّ بعد إيمانه حُجّة عليه

تحملُ إضافة الإيمان إلى ضمير الكافر في قوله تعالى: ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ دلالةَ نوعيَّةِ هذا الإيمان، فهو الإيمان الذي صار حُجّة على صاحبه، وصار وبالًا عليه؛ فهو إيمان يضرُّ ولا ينفع، بخلاف الإيمان المطلق الذي ينفعُ ولا يضرُّ، ويرفع ولا يضع، ويُقبل من المؤمن الموفّق ولا يُرد عليه، وفيه إشارة إلى أنّ هذا الإيمان مخصوصٌ بالمرتد ومقصورٌ عليه.

سِرُّ اصطفاء الإيمان دونَ الإسلام في الآية:

الإسلام الصّادق يستلزم الإيمانَ مِن غير عكس

في اصطفاء اسم الإيمان دون الإسلام في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، دِقَّةٌ بالغة؛ لأنّ المرتدَّ قد خالط الإيمان نفسه لكنه لم يُسلم له قيادَه، نعم، هو أبصر الحق لكنه لم يمتثّله ولم يطبّقه منهجَ حياة، أما الإسلام فينطق بالاستسلام لتعاليم الدين وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وذلك لم يكن.

فالكافر مَرَّ بمرحلة الإيمان ولم يتجاوزها إلى مرحلة الاستسلام والانقياد، وعلى هذا يكون الإسلام بالمعنى السابق درجة أعلى مِن الإيمان، وأنّ الإسلام يستلزم الإيمان من غير عكس، وذلك خلاف الشائع من أمرهما؛ إذ الشائع الذائع أنّ الإسلام مجرد الاستسلام الظاهري، وأنّ الإيمان التصديق القلبي، وهذا إنما يختصّ بالمنافق، أما في المجمل فقد اتضح أنّ الإسلام يستلزم الإيمان دون العكس، والله تعالى أعلم.

دلالةُ الجملةِ الاعتراضيّة:

الرخصةُ بالكفر الظّاهريّ عند الإكراه

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾، في هذه الجملة الاعتراضية تتجلّى الدّقةُ التّركيبيّة لهذا النّظم الكريم؛ ذلك أنّ الحُكم على مَن كفر

– مِن بعد إيمانه – بالغضب والعذاب العظيم ليس على إطلاقه؛ إذ هناك مَن يفعله ظاهرًا تحت الإكراه، بينما الإيمان قد تمكَّن منه، واستقر في قلبه، وتشرّبته نفسه، راضيًا به محبًّا له، فكان لا بد من هذا القيد ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ الذي يدلُّ على أنَّ "مَن أُكرِه على الكفر وتلفَّظ به إنما هو معذور"[1].

غَرضُ توسّطِ الاستثناء بين طرفَي الجملة:

الاحـــتراسُ بما لا يجوز الحكم بـه مِـن تعميم العقوبتين

من البراعة في نظم الآية الكريمة أن أُقحِم هذا الاستثناء المنقطع ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ بين طرفي الجملة: ﴿مَن كَفَرَ﴾ ... ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾، وكان بالإمكان تأخيرُه ليأتي كما فسّروه في آخر الآية الكريمة خبرًا مستقلًّا مستأنَفًا، أو ابتداءً في آية أخرى، فتُكمَل الآية الكريمة هكذا: (من كفر باللّه من بعد إيمانه فعليه غضب...)، ثم يساق الاستثناء في آية أخرى مستقلة: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾، غير أنَّ توسيطه اعتراضًا بين طرفي الجملة حقّق فضيلتين هما:

أنَّ التركيب قد جمع آيتين في آية، فحقّق توائُق تركيبين، وشدَّ أسرهما، فأُفرغا إفراغًا واحدًا، وسُبكا سبكًا واحدًا كما يقول الجاحظ[2].

وأنَّ التركيب قد عجَّل بالاحتراس بذكر الاستثناء – المعترض بين جزئي الجملة – مِن سَبْق الوهم إلى ما لا يجوز الحكم به مِن تعميم العقوبتين ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾.. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ ... على كل مَن كفر، بِمن فيهم المُكرَه على النطق بكلام الكفر مع ثبات قلبه على الإيمان الخالص واليقين الصادق.

مـشـاكـلـةُ ما يَظهرُ مِن المكرَه بعد الإيمان ما مثله يكون مِنَ الكافر

بلاغةُ الإتيانِ بالاستثناء على غير حقيقته:

جملة ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ "ليست باستثناء حقيقيّ؛ لأنَّ المكره ليس

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.
(2) الجاحظ، البيان والتّبيين: 1/ 18.

بكافر، فلا يصحُّ استثناؤه من الكافر، لكنّ المكرَه لَمّا ظهر منه بَعد الإيمان ما مِثله يظهر من الكافر طوْعًا صحَّ هذا الاستثناء لهذه المشاكلة"[1]؛ "لأنّ الكفرَ لغةً يَتمُّ بالقول"[2]، و"مُصَحِّح الاستثناء هو أنّ الذي قال قول الكفار قد كفر بلفظه"[3]، وذلك له "ترخيص ومعذرة"[4] مِنَ اللّه تعالى؛ "رِفْقًا بعباده، واعتبارًا للأشياء بغاياتها ومقاصدها"[5].

دلالة التّعبيرِ بـ ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ أُكْرِهَ﴾:

عمومُها وشمولها الإفرادَ والتّثنيةَ والجمعَ

آثر النظم الكريم التعبير بـ ﴿مَنْ﴾ دون (الذي) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾؛ لأنها تتناغم مع التعبير بـ ﴿مَنْ﴾ في أوّل الآية الكريمة، والسياق جليّ: ﴿مَن كَفَرَ﴾، ﴿مَنْ أُكْرِهَ﴾، و(مَن) تتسع لجميع الأعداد والأصناف من إفراد وتثنية وجمع، ومن الرجال والنساء كما سبق، أما التعبير بـ (الذي) فمخصوص بالمفرد المذكّر، فلا يَفي بالمقصود، ولا يحقّق الغرض من إشاعة التحذير لعموم هؤلاء.

سِرُّ التّعبير بالإكراه:

جواز التّلفُّظِ بالكفر ظاهريًّا في حالة خشية الهلاك

التّعبير بالإكراه صريحٌ في إباحة الكفر الظاهري في حالة الاضطرار القاهِر الذي لا سبيل إلى التخلّص منه البتّة، وبحيث يَخشى معه المكرَه من القتل أو قطع جزء منه، أو "أن يعذّبه بعذاب لا طاقة له به"[6]، وفي التصريح بالإكراه نفيُ منحِ إباحة الكفر لمجرد ترهيبٍ وتهديدٍ، أو استجابةٍ لأيّة إغراءات، و"درجة الإكراه المبيحة لأيّ فعل تُقَدَّر بدرجة الحرام الذي يُستباح به"[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 274.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 293.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 274.
(7) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.

دلالة بناء الفعل ﴿أُكۡرِهَ﴾ لما لم يُسَمّ فاعلُه:

إفادةُ عمومِ مَن يقعُ عليه فعلُ الإكراه

حُذِف فاعل الإكراه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ لإفادة العموم؛ فأيًّا كان المكرِه مِن أفرادٍ أو جماعات لا يتعلق بِعينه غرضٌ، ولا يتوقف على تعيينه حُكم، وإنما يتعلق الحكم بالمكرَه المؤمن، فإذا وقع عليه الإكراه رُفِع عنه الحرج وإن تلفظ بالكفر في الظّاهر.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ المكرَهِ عليه:

عـــدمُ إشـاعـةِ التّلفُّظِ بالكفر إلّا لضرورة

حذف المكرَه عليه من اللفظ في جملة ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ لتعيُّنه، واكتفاءً بِفهمه من قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، ثم في حذفه لطيفة دقيقة هي أنّ الكفر بالله تعالى مما يُفترض فيه ألا يكون من أحد أصلًا، فالأصل في العباد هو الإيمان، قال الله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: 30]، وقال الرسول ﷺ فيما يَرويه عن ربه ﷻ: "إني خلقت عبادي كلهم حنفاء"[1]، والذي يناسب ذلك الأصل عدمُ إشاعةِ ذِكر الكفر بعامّة، وعدم ذِكره مضافًا إلى الله تعالى بخاصّة، وفي هذا تعليم للمؤمنين ألا يردِّدوا لفظ الكفر مضافًا إلى الله تعالى إلا لضرورة.

أثرُ اعتراض جملة ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ في المؤمن المكرَه:

التّعجيلُ بالعفو عمَّن يُكرَه على الكُفر تطمينٌ له

في التعجيل بِذكر هذه الجملة الاعتراضية: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ بعد ذكر المبتدأ وقبل سوق الخبر؛ تدارُكٌ للعبد المؤمن الذي يُكرَه على قول الكفر، وإحاطةٌ له بسياج الطمأنينة الذي لا يَنفُذ منه إلى نفسه أيُّ قلق، أو خوفٍ من اندراجه تحت الحكم الخطير: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

فإلى هذا الحدِّ مِن تطمين المؤمن المُكرَه يُعجِّل له النّظمُ الكريم ببشارة العفوِ عن كلام السوء غير المصحوب بتصديق القلب.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2865).

معنى الواو في قوله: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ﴾:

التّلفّظ بالكفر للمُكْرَه هو ما اقترن بالإيمان الرّاسِخ في القلب

الواو في جملة ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ واو الحال، التي توجِب على المكرَه على الكفر الثباتَ على الإيمان لحظة مباشرة الكفر الظاهر، وألا يُجاوز النطقُ بالكفر شفتَيْه، وألا يمتزج شيء من الكفر بنفسه ولا بقلبه؛ إذ "أجمعوا على أن عند ذكر كلمة الكفر يجب عليه أن يبرّئ قلبه من الرضا به، وأن يقتصر على التعريضات"[1].

بلاغةُ موقعِ جملة ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾:

التّعريضُ بمن ينطق بالكفر طواعيَةً لمنفعة

جملة ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ "حال من المستثنى، والعاملُ هو الكفرُ الواقع بالإكراه لا نفس الإكراه؛ لأن مقارنةَ اطمئنان القلبِ بالإيمان للإكراه لا تُجدي نفعًا، وإنما المجدي مقارنتُه للكفر الواقعِ به، أي: إلا مَنْ كفر بإكراهٍ، مِن: إلا من أكره، فكفر، والحالُ أنَّ قلبَه مُطمَئِنٌّ بالإيمان، لم تتغير عقيدتُه، وإنما لم يصرَّح به إيماءً إلى أنه ليس بكفرٍ حقيقةً، وفيه دليلٌ على أنَّ الإيمانَ هو التصديقُ بالقلب"[2]، ومن بلاغة هذه الحال "أن مِن الناس مَن يُكرَه على الكفر، فيكفُر راضيًا متَّجِهًا بنفسه وقلبِه إلى الكفر لتحصيل منفعة دنيوية خسيسة"[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالقلب دون الفؤاد:

القلب مناطُ الإيمان ومستقرُّه

جاء التعبير بالقلب في قوله: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ ليُنبّه إلى أن هذا القلب المتقلِّب بالنسبة لقضية الإيمان قد ثَبَتَ واستقرَّ على الإيمان، ولم يعد يتقلَّبُ بينه وبين الكفر، أو بينه وبين النفاق؛ لذلك قُيِّد بوصف الاطمئنان، فقال تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، أما الفؤاد فمن التَّفَؤُّدِ والتحرُّقِ والتألُّمِ، وذلك يتنافى مع دلالة الاطمئنان والسكينة بالإيمان.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 274.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.

ويؤكِّد ذلك ما روي من أنّ "ناسًا من أهل مكة فُتِنوا فارتدّوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم مَن أُكره فأجْرَى كلمةَ الكفر على لِسانه وهو معتقدٌ للإيمان، منهم عمّارٌ ... فقيل: يا رسول الله، إنّ عمارًا كفر، فقال: "كلّا، إنّ عمارًا مُلِئَ إيمانًا من قَرْنِه إلى قَدَمِه، واختلط الإيمانُ بِلحمه ودمه"، فأتى عمّارٌ رسولَ الله ﷺ وهو يَبكي، فجعل النبيُّ ﷺ يَمسح عينَيْه، وقال: "ما لك! إنْ عادوا لك فعُد لهم بما قلت""[1].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ﴾:

إضافة القلب إلى ضمير المُكْرَه في قوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ﴾، تَدعم فكرة ثباتِ المكره على الإيمان؛ إذ إنّ قلبَه هو الذي يختصُّ بالإيمان، ولا يَرَى ما فيه إلا الله تعالى؛ فلا يمكن خداع المكره نفسَه.

لا يخدعُ الإنسانُ نفسَه في قضية الإيمان

نُكْتَةُ اصطفاءِ وصف الاطمئنان للقلب:

آثر القرآن الكريم وصْف القلب بالاطمئنانِ في قوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ لأنّ وصف القلب به يُناسب المقصودَ من تسكينه وطَمأنته، وجعْله هادئًا قارًّا بالإيمان؛ لأن الإيمان يَمنح القلب الأمنَ والأمان مهما أُحيط صاحبُه بالمخاطر الخارجية؛ فهو موصولٌ بالله تعالى.

الإيمان يمنح القلبَ الطمأنينة رغم قسوة الحال

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّة في قوله: ﴿مُطْمَئِنٌّ﴾:

اسمية الخبر ﴿مُطْمَئِنٌّ﴾ تناسب السياق القريب من جهةٍ، كما تناسب المعنى المقصود من الجهة الأخرى؛ أما مناسبتها للسياق فمن حيث مناسبتُها لاسمية ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ بالنسبة لمن انتكس إلى الكفر، وأما مناسبتها للمعنى فمن حيث إنّ اطمئنان قلب المؤمن المكرَه على الإيمان ضرورة للسماح له بالنجاة من الإكراه بالتلفظ بالكفر.

طمأنينةُ القلب بالإيمان تحقق لصاحبها راحة البال

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 636، وهو أثر إسناده ضعيف مسلسل بالضعفاء، يُنظر: الألبانيُّ، السلسلة الصحيحة: 2/ 448.

ثم إن طبيعة دلالةِ مادة (طمن) تقتضي الاسميةَ؛ لأن طبيعتها الثبات، والتطامُن، من تطامنَتِ الأرضُ، أي: استقرَّت وتثبتتْ؛ ولهذا المعنى فإنَّ طمأنينة القلب المؤمن تحقّق لصاحبها راحة البال، ما دام إيمانه راسخًا كاملًا.

دلالةُ تعديَة ﴿مُطْمَئِنٌّ﴾ بالباء:

إيمانُ القلبِ يمنحه معانيَ الاطمئنان والاستقرار

للباء في القيد بالجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، إشارات معنوية عظيمة؛ فإنها تؤذن بتضمين اسم الفاعل ﴿مُطْمَئِنٌّ﴾ معاني متكاثفة منها: متمسكٌ بالإيمان، ملتصقٌ بالإيمان، مستعينٌ بالإيمان، مصحوبٌ بالإيمان، مستعلٍ على ضغوط الإكراه بالإيمان؛ وذلك أنَّ الاطمئنان في الأصل يعدَّى بـ (إلى)، فيقال: اطمأنّ إلى كذا، أي: ركن إليه، فلما جاءت الباء ألمحتْ إلى تلك الدلالات المتكاثفة مضمومةً إلى دلالة الاطمئنان، ومضمَّنةً فيه.

دلالة (أل) في لفظ ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾:

إيمانُ مَن أُكرِه على الكفر هو الإيمان الراسخ في القلب

دلّت (أل) في لفظ الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ على كماله وتميزه؛ لأنه لا بُدَّ للمكرَه على الكفر من رسوخ الإيمان في قلبه، واستجماعه خصائص الإيمان الصادق، واستيفائه شرائطَه حال نطقه بكلام الكفر، سواء كان كفرًا صريحًا، أو كان لازمًا من لوازم الكفر، مثل سَبّ النبي حاشاه ﷺ.

دلالة تعريف ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ بأل دون الإضافة:

الإيمان الصادق يمدّ صاحبه بطاقة الاحتمال

جاء التعبير القرآنيّ بالتعريف بـ (أل) للإيمان في قوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ دون التعريف بالإضافة كما سبق في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾؛ وذلك للدلالة على رسوخ هذا الإيمان وكماله، وأيضًا لأنّ تعريف الإيمان في جانب المؤمن المكرَه بـ (أل) يوحي بأنه الإيمان النقيّ الذي يَمُدّ صاحبه بطاقةٍ جبّارة، مِن قوة

الاحتمال حتى مشارفة الموت، وعندئذ يُؤذَن له بالتلفُّظ بكلام الكفر دون أن يجاوز لسانه إلى قلبه.

أمّا تعريف الإيمان بالإضمار في جملة ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ فيوحي بأنّ إيمانه إيمان مزعزَع لم يرسخ في قلبه رسوخه في قلب المؤمن الصادق.

سِرُّ تقييدِ اطمئنانِ القلب بالإيمان دون ذكر الله:

التّعويلُ عند الإكـــراه على إيـمـان قلب المُكرَه لا على ذكر لسانه

قُيد اطمئنان القلب بالإيمان في قوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دون ذكر الله؛ لأن الإيمان في مقام الإكراه على الكفر يكون دفينًا مكتومًا؛ فلا مجال ولا مناسبة لتحريك اللسان بذكر الله تعالى؛ لذلك قُيّد اطمئنانُ القلب هنا بما يناسبه وهو اطمئنانه بالإيمان المستكنّ الراسخ، الذي محلُّه القلب دون اللسان.

أمّا الاطمئنان بذكر الله تعالى - ولو تمتمة - فمجالُه السَّعةُ لا الإكراه؛ حتى لا يُلحَظ من قِبَل العدوِّ، الذي يُكرِه العبد على الكفر؛ فالذكر باللسان في هذا المقام يتنافى مع حالة الإكراه أصلًا، وهذا من رحمة الله تعالى بعبده المكرَه.

سِرُّ تقييدِ اطمئنان قلبِ المُكرَه ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دون الإسلام:

القلب المطمئنّ بالإيمان يظهر إسـلامـه على الجوارح

قيّد القرآن الكريم اطمئنان قلب المكره بالإيمان دون تقييد اطمئنانه بالإسلام في قوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنّ الإسلام يطلق على تنفيذ تعاليم الشرع من صلاة وصيام وزكاة، وليس هذا متاحًا للمؤمن حال إكراهه على الكفر، وإنما المجال حينئذ لاطمئنان قلبه بالإيمان؛ لأنه أمرٌ قلبيّ لا يطّلع عليه أحد، ولا يتحمل بسببه المشاق التي تكرهه على الكفر.

ولو قَيَّد النظم الكريم اطمئنانَ قلب المكرَه (بالإسلام) لضاق عليه الخناق حينئذ أكثر، ولَما قَدَّم له الدين أيَّ رُخصة شرعية تخفّف

عنه في محنته العصيبة؛ لذلك كان التعبير القرآنيّ هو الأوفق في تعبيره باطمئنان قلب المكرَه ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ دون لفظ (الإسلام).

لطيفةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾:

لا ينصرف الإيمانُ إذا أُطلِق إلّا لله تعالى

حَذْفُ متعلَّق الإيمانِ يقطع بتعيُّنه؛ إذ لا يجوز الإيمان بسوى الله ﷻ لأنه لا ينصرف إلا إلى الله تعالى ربًّا وإلهًا، وإلى الإسلام دينًا وتشريعًا، وإلى القرآن كتابًا ودستورًا، وإلى محمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، هذا هو الإيمان الذي يُسمَح معه للمكرَه على الكفر بإظهار الكفر معه.

سِرّ التّعبيرِ بالإظهار في مقام إضمار الإيمان:

رسوخ إيمان العبد المكرَه يخفِّف عنه الكروب

آثرَ القرآن الكريم التعبير بالإظهار في قوله تعالى: ﴿مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دون الإضمار بأن يقول (مطمئن به)؛ لِما في الإظهار من إلحاح على ترسيخ الإيمان في نفس المكرَه، وإيناسه به، ودَعْم نفسه في مأزق الإكراه الذي يمرُّ به، ورفْع روحه المعنوية، وإنْ نطق بالكفر لسانه؛ بخلاف الإضمار فلا يؤدّي ذلك.

عِلّةُ السّكوت عن حُكم مَن أُكْرِه وقلبُه راضٍ بالكفر:

التّحذير مِن مُداخلَة الكفر قلب المكرَه

بيّنت الآية الكريمة حُكمَ ﴿مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، وسكتتْ عن بيان حُكم مَن أُكرِه وقلبُه ليس مطمئنًّا بالإيمان، بل داخَلَ الكفرُ قلبَه مع الإكراه؛ فأولئك الذين عادوا إلى الكفر بأفواههم وبقلوبهم جميعًا، وهذا يعني أن المعاريضَ - الكلام الذي يوهِمُ به السامِعَ غيرَ ما عناه - وإن كانت بابًا من أبواب التيسير والرحمة بالمؤمنين، إلا أنها باب محفوف بالمخاطر، لا يدخله الإنسان إلا على حذرٍ وإشفاق، وفي هذا تنبيه للمكرَه إلى أنْ يحتاط من أيّ مهادنة قلبيَّةٍ للكفّار حين إبدائه الكفر ظاهرًا فقط.

بلاغةُ العطفِ:

بيان لحُكم صَدْر الآية بأسلوبٍ رائق

تظهر بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾؛ لأنها جملة استدراكية بعد ذِكر صاحب الحال ﴿إِلَّا مَنۡ

﴿أُكۡرِهَ﴾، والسياق من غير جملة الحال: إلا من أكره ولكن من شرح ...؛ فكلتاهما إذن معترضتان، وثانيتُهما مقرِّرةٌ لِمفهوم مخالَفة الأولى؛ ولذلك عطفتْ عليها؛ يقول ابن عاشور: "﴿مَّن شَرَحَ﴾ معطوف بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ على ﴿مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنه في معنى المنفيِّ لِوقوعه عقب الاستثناء من المثبت، فحرْف (لكن) عاطف، ولا عبرة بوجود (الواو) على التحقيق"[1].

ويرى القاسمي أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ رجوعٌ إلى صدر الآية وحكمِها بأسلوب مبيّن لِمن كفر، موضِّح له بمثابة عطف البيان، أو عطف التفسير؛ يقول: "وهذا الوجه من الإعراب: لم أره لأحد، ولا يظهر غيرُه لِمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن"[2].

عِلّةُ الاستدراك بـ ﴿وَلَٰكِن﴾:

تقريرُ حُكمِ مَن أُكره فكَفَر وطابَ به نفسًا

جاء النّظم القرآنيّ بذكر ﴿وَلَٰكِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾، ومن العجيب أنه لم يُبْطِئْ بِذكر هذا القيد بُعيد الجملة الاعتراضية الأولى، بل ألحقها بها مباشرة ليستقرَّ الحكمان معًا: حكمُ خبرِ المبتدأ ﴿مَن كَفَرَ﴾، و﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾، فكلاهما عليه غضبٌ من الله، وجملة ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ -على أحد الأقوال- معطوفةٌ على المبتدأ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ في أول الآية الكريمة؛ ليجتمع لهما حكمٌ واحد، أي: من كفر بالله، ومن شرح بالكفر صدرًا؛ فعليهما غضب، ففي هذه الجملة "احتراسٌ من أن يُفهم من الاستثناء أنّ المكره مرخَّص له أن ينسلخ عن الإيمان من قلبه"[3]؛ لذلك كان التعبير بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ لتحرير قضية المكرَه، وتقرير حكم من أُكره فكفر فعلًا، و"طاب به نفسًا واعتقده"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 412.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 201.

معنى ﴿مَّن﴾ في قوله: ﴿مَّن شَرَحَ﴾:

الموصوليّةُ والشّرطيّةُ فيها ثَراءٌ للمعنى

يجوز في ﴿مَّن﴾ في جملة ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أن تكون موصوليّةً، أو أن تكون شرطيّة؛ فعلى أن تكون شرطيّة تحتاج إلى فعل الشّرط وجوابه، والشّرط غيرُ مراد به معين، بل هو تحذير؛ لأنّ الماضي في الشّرط ينقلب إلى معنى المضارع، ويكون قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جوابَ الشّرطِ، وعلى كونها موصولية تحتاج إلى جملة الصلة مع تضمنها معنى الشرط، وبذلك اقتضتْ – في الوقت نفسه – أمرين؛ **الأوّل**: اقتضت جملةَ صلةٍ، هي هنا ذاتُ جملة الشرط ﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾، **والثّاني**: جملة جواب الشرط، وهي هنا ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾، وذلك التداخل الدقيق يَمنح التركيب ثراءً دلاليًّا يجعل السياق ممتلئًا بالمعاني المترتبة على الموصوليةِ والشرطية.

سِرُّ التّعبيرِ بفعل الشَّرْح:

التّفريقُ بين مَن طابت نفسُه بالكفر ومَن كَرِهَهُ

عبّر القرآنُ الكريم بالفعل ﴿شَرَحَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾؛ للتفريق بين من أكره على الكفر وهو مبغض له لفظًا ومعنًى، وبين من طابت نفسه بالكفر، يدل على ذلك التعبير بمادة ﴿شَرَحَ﴾؛ لأنها تُفْصِحُ عن توسيع الصدر وانبساطه لاستقبال الكفر دون عوائق إيمانيَّةٍ تعوقه؛ وفي ذلك كناية عن كمال الرضا بالكفر، والسرور وطيب النفس له.

وذِكر مادّة ﴿شَرَحَ﴾ يجلو وجهَ استحقاق من طابت نفسه بالكفر للجزاء المتصل بها في التركيب: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

معنى التّعبيرِ بالباء في قوله: ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾:

الكافر ملتصق بكفره، حريصٌ عليه، محتفٍ به

أوثِرَ في الآية الكريمة التّعبيرُ بالباء في قوله تعالى: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾؛ لأنها تدلُّ على معانٍ متعدّدة؛ منها: معنى التعليل، أي: شرح صدرَه لأجل احْتفائه بالكفر ورضاه به.

وتدلّ الباء على الاستعانة؛ وكأنه استعان بالكفر دون الإيمان على فتْح الصدر، وتوسيعه للاختيار الأنسب له، فأداة الكافر التي يستعين بها على هذا الشرح هي الكفر، وكذلك تفيد الإلصاق، وكأنّه التصق بالكفر واختلط به.

سِرُّ تقديمِ الجارّ والمجرور:

إبرازُ وجهِ الإنكار والبشاعة في انشراحه بالكفر

دلَّ تقديمُ الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ على عناية هذا الكافر بالكفر، وعلى شدّة ارتباطه وتمسّكه به، والتصاقه به حتى صار قضيتَه الأهم؛ كما دل على "إبراز بشاعة الأمر بإظهار سبب الانشراح أولًا قبل ذكر الصدر؛ لأن المنكَر في الأمر ليس مجرد انشراح الصدر، بل المنكَر هو انشراحه بالكفر؛ ولذا قدّم لإبراز وجه الإنكار والبشاعة"[1].

غرضُ التّعبيرِ ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ دون (بكفره):

صورُ الكفر متنوّعة، وهو مِلّةٌ واحدة

تعريف ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ في جملة ﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ﴾ يوحي بأنه (الكفر) البالغ في بابه منتهى الضلال، وأنه ليس كفرًا خاصًّا به، كما كان هناك ﴿إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ - في القيد ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ - خاصًّا به؛ فصور (الكفر) عديدة، وكُلّه مِلَّةٌ واحدة، ومؤدّاه واحد مهما تعدّدت صوره؛ فكان تعريفُ (الكفر) بـ(أل) دالًّا على المقصود بدقّة.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿صَدۡرًا﴾ دون تعريفه بالضّمير:

استحقارُ الصّدْر المنشرحِ بالكفر، المختارِ له

"لم يأتِ الصدر معرّفًا، بل نُكِّر استحقارًا لهذا الصدر الذي انشرح بالكفر"[2]، فلم يقل: (صدره)، "وحذف الضمير؛ لأنه لا يُشكِل بِصَدرِ غيرِه؛ إذ البشر لا يقدر على شرح صدر غيره؛ فهو نكرة يراد بها المعرفة"[3]، "فصُرِف الفعل إلى المضاف،

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.
(2) القدومي، التّفسير البيانيّ، ص: 213.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 276.

فانتصب على التمييز، فكأنه قال: (شرحه صدرًا)، أي: قَبِلَه على اختيار"[1].

سِرُّ التّعبير بـ ﴿صَدْرًا﴾ دون (القلب):

انشراح الصّدر دليلُ هدوءِ القلبِ وسعادته

جاء التعبير بالصدر دون القلب؛ لأنه محلُّ القلب الّذي يسعد بالإيمان أو بالكفر ويشتمل عليه؛ لذلك عبر القرآن الكريم بانشراح الصدر للكناية عن الراحة والهدوء والاستقرار، ولمّا كان المرتد عن الإيمان راضيًا مستبشرًا بكفره، عبر عنه بانشراح الصدر.

أما التعبير بالقلب فغير مراد هنا؛ لأنّ من لوازمه الاطمئنان والسكينة، والأصل أنَّ المرتدَّ قد اعتقد الكفر، وارتاح له، وتطامن إليه، وسعِد به، وليس مجرّد قبول واعتقاد، ولكنِ استبشار وفرحة.

وجهُ إيثارِ صيغةِ التّمييز:

انشراحُ صدرِ الكافر بالكفر موقوتٌ

أوثِرت صياغةُ التّمييز في قوله تعالى: ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ دون الإضافة؛ فلم يقل: (وصدرُه منشرح بالكفر) كما في قوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام؛ فهذا القلب دائم الاطمئنان بالإيمان، "بينما جملة ﴿شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ هي جملة فعلية لا تدلُّ على الثبات والدوام؛ لأن القلب الكافر ليس قلبًا منشرحًا، بل انشرح وقتيًّا لأمر عارض، وسَرْعان ما يضيق هذا الصدر"[2].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

رضا الكفارِ بكفرهم سببٌ لاستحقاق غضب الله وعذابه

دلّتِ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على تفريع الجزاء وترتيبه على العمل، أي: رتَّبتِ استحقاقهم غضبَ اللّه تعالى على شرحهم بالكفر صدورهم، ووجه هذا الاستحقاق رضاهم

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 201.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 213.

التام، واحتضانهم المطلق للكفر، وفتح الصدر له؛ مما أوجب عليهم غضبَ الله تعالى.

نُكْتَةُ اقترانِ الخبر بالفاء:

قُرن الخبر بالفاء في قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن في المبتدأ شَبَهًا بأداة الشرط، وقد يعامل الموصول معاملة الشرط، ووقع في القرآن في غير موضع، والآية مجرد تحذير للمسلمين من العود إلى الكفر.

معاملةُ الموصول كالشَّرْط في الشَّبه

دلالةُ تقديمِ المسند في قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾:

ورد السياقُ الكريمُ بتقديم الجارّ والمجرور ﴿فَعَلَيْهِمْ﴾ على المبتدأ ﴿غَضَبٌ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ إشارةً إلى قوّة استحقاقِ ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ غضبَ الله تعالى، وجدارتهم به، وإفادة أنهم أحقُّ الخَلْق بِغضبه ﷻ؛ وفي تقديمه أيضًا "تصحيح الإتيان بالمبتدأ نكرةً حين قُصد بالتنكيرِ التعظيمُ، أي: غضب عظيم، فاكتفى بالتنكير عن الصفة"[1].

فظاعةُ غضبِ الله واستحقاقُه بمن شرح بالكفر صدرًا

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة:

جاء التّعبير بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ دون الفعلية؛ "لما تدل عليه من الدوام والثبات، أي: غضبٌ لا مغفرة معه"[2]؛ أما الفعل الماضي فمُنْتَفٍ بوجهٍ من الوجوه لارتباطه بالزمن، والزمن غير قارّ كما هو معلوم.

غضبُ الله تعالى وعذابُه للكافرين دائمٌ مستمرّ

سِرّ التّعبير بالغضب دون لازمه:

في التعبير بالغضب في قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دون لازمه مَزيد تهديدٍ وتنديد لمن يكفر سعيدًا بكفره فيشرح بالكفر صدره، والغضب يستلزم الانتقام من المغضوب عليهم، ولمّا كان وقوع

غضبُ الله تعالى يستلزم إنزال عقابِه بالمغضوب عليهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.

الغضب من الله تعالى صاحبِ القدرة المطلقة والقوة غير المحدودة كان كنايةً عن هول ما يَلقى المغضوبُ عليهم.

دلالة تنكير المسند إليه:

التّهويل والتّخويف من فظاعته وشدَّته

التّنكيرُ في قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ يفيد التهويل، ويوحي ببلوغ الخطر مداه الذي لا يُتصوّر، وأنه ﴿غَضَبٞ﴾ مستفظعٌ لا عهد لأحدٍ به ولا بخطورته، فهو غضب "عظيم لا يُكتنه كُنهه"[1]؛ "فاكتُفي بالتنكير عن الصفة"[2]؛ فتحقق بهذا التنكير التوازي بين ﴿غَضَبٞ﴾ المنكَّر وبين العذاب الموصوف بالعظيم بعدُ.

فائدةُ التّعبير بضمير الجماعة:

الالتفاتُ مِن خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة

دلَّ التّعبيرُ بضمير الجماعة في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ مع سبق الإفراد في قوله تعالى: ﴿مَّن شَرَحَ﴾ على الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة؛ وذلك مراعاة للفظ ﴿مَّن﴾ ومعناها الجمع، وفي هذا الجمع إشارة إلى كثرتهم، وإلى كثرة الغضب الإلهي الذي يُصَبّ عليهم.

وجاء "الجمعُ في الضميرين المجرورين ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ لمراعاة جانبِ المعنى، كما أنّ الإفراد المستكنَّ في الصلة لرعاية جانب اللفظ"[3].

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

شِدَّة عذابهم وانتقامُ اللهِ منهم

تدلُّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على أن ابتداء صَبِّ الغضب على مَن شرح بالكفر صدرًا - من بعد إيمانه - ونزولِه عليه؛ إنما هو من عند الله ﷻ، وفي ذلك تهديد شديد ووعيد أكيد بشدة معاناتهم، وقوّة وقوع لازم الغضب - وهو الانتقام - منهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 294.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

تأكيدُ اختصاصِ الكفار بالعذاب دون غيرهم

دلَّ تقديم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، على اختصاص الكفار به دون غيرهم، ودلّ أيضًا على قَصْره عليهم، أي: أنّ هذا العذاب العظيم المستجمِع تلك الصّفات يُقصَر عليهم، ولا ينالُه سواهم، ولا يشاركُهم فيه غيرُهم، ودَلَّ أيضًا على توكيد تحقّق العذاب العظيم لهم، وتقرير نسبته الإيقاعيّة عليهم، وكأنّه صار مخصوصًا بهم مُعَدًّا لهم.

بلاغةُ إظهارِ الاسمِ الجليل في مقام الغضب:

تربيةُ المهابةِ، وتقويةُ تعظيم العذاب

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بإظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في مقام الغضب من قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بعد تقدُّم ذِكْرِه في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ دون إضماره؛ "لتربية المهابة، وتقويةِ تعظيم العذاب"[1] المذكور عقبه؛ لذلك ذُكِرَ الاسم الجليل بالعَلَميّة صريحًا مُظهَرًا في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

سِرُّ اختلافِ حرفِي الجرّ (على، اللام):

إفراغُ الغضبِ الإلهيّ عليهم إفراغًا من علوٍّ واختصاصُه بهم

خالف التعبير القرآني بين حرفي الجر في الآية، إذ قيد الغضب بحرف الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ الذي يُشعر بإفراغ الغضب الإلهي عليهم إفراغًا من علوّ، وكأنه حِمَمٌ وصواعق تسقط عليهم، وهذا يليق بعلوّ الله عز وعلا وشدَّة وقع غضبه عليهم، أمّا اللّام في ﴿وَلَهُمْ﴾ ففيها معنى الاختصاص، أي: أنّ العذاب العظيم مختصّ بهم دون سواهم.

غرضُ اختلافِ السِّياق في وصف العذاب:

سياق المعنى في الآيـة ودلالتُـه يُـحـدِّدُ وصـفَ العذاب

وُصِفَ العذاب في هذه الآية بالعظيم، وفي الآية قبل السابقة بالأليم؛ لأن سياق المعنى في كل آيةٍ هو الذي يوجِّه نَحو وصفٍ يُناسبه مِن أوصاف العذاب، فقد سبق في الآية ذِكْر شرح الصدر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.

وتوسيعه وتراحُبِه انبساطًا واستبشارًا بالكفر، وارتياحًا إليه، وهذا يلائمه وصف (العظيم)، "وهو عذاب جهنم"[1]؛ ذلك أنه "لا جُرم أعظمُ من جرمهم"[2].

ووصف ﴿عَظِيمٌ﴾ يلائم السياق من حيث الكمّ أكثر مما يناسبه وصف (الأليم) من حيث الكيف، أما الآية التي قبل السابقة فتعالج قضية الحرمان من الهداية المترتبة على عدم الإيمان؛ فيناسبها وصف عذابها بالأليم كما جاء به النظم.

غرابة النَّظْم يتّسق مع غرابة الإذْن بكفر المُكْرَه باللّسان:

الإسلامُ دينُ الرَّحمة المتَّسقة مع أحوال العباد المتباينة

مِن أبرع ما جاء في كتب التّفاسير عن أسلوب هذه الآية الكريمة ما وُفِّق إليه صاحب التفسير القرآني للقرآن[3] إذ يقول: "جاء نظم الآية على غير مألوف اللغة، حيث جاء الشرط: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، ولم يُذكر له جواب، ثم دخل على هذا الشرط الاستثناء: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، ثم لم يُذكر لهذا الشرط والاستثناء الوارد عليه جواب، ثم ورد هذا الاستدراك: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ محمّلًا بشرط وجواب:

أمّا الشرط فهو الشرط السابق موصوفًا بمفهوم المخالفة للاستثناء الوارد على هذا الشرط، وأما الجواب فهو الجواب الذي يصلح للشرطين معًا، ولكنه اتَّجه إلى الشرط الثاني بعد أن وقع الاستثناء على الشرط الأول، والتقدير: (من كفر بالله من بعد إيمانه شارحًا بالكفر صدره فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان).

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 191.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(3) وقد نقلت النّصّ على طوله لِما يشتمل عليه مِن لمحات بلاغيّة رقيقة.

وتلك الحال التي تعرضها الآيةُ الكريمة من أحوال المؤمنين، حين يُمتَحَنون في دينهم، ويتعرضون للفتنة في عقيدتهم، فهذه الحال ليست من الأحوال المألوفة للإنسان، بحيث يروض نفسَه عليها، ويوطِّنها على احتمال إكراهِها، وإنما هي تجربةٌ قاسية يلقاها الإنسان مرة واحدة في حياته، حين تحمله البلوى على أن يتبدّل دينًا بدين، وعقيدة بعقيدة.

ومن هنا جاء النظم القرآني في الآية الكريمة على هذا الأسلوب الذي يمسك بتلك المشاعر المضطربة، ويصوِّر تلك النفوس القلقة المذعورة التي انعقدت في سمائها سحبٌ متراكمة، ترمي برعودها وبروقها وصواعقها، في غير مهل أو انقطاع.

وهكذا يحكي النظم القرآني بموسيقى ألفاظه ما تُحدِّث عنه الألفاظ بدلالة معانيها، فيقع المعنى في النفس موقعًا متمكِّنًا، حيث يدخل عليها مصوَّرًا مجسَّدًا"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإكراه والإلْجاء:

الإكراهُ: حَملُ الغير على أن يَفعل ما لا يرضاه، ولا يَختار مباشرتَه لو خُلّي ونفسه، ومنه حَمل الغير على ما يكرهه بالوعيد المُخيف[2]، والإلجاءُ نوع من أنواع الإكراه، بل هو أشد أنواع الإكراه؛ إذ يتحقّق الإلجاء "حيث ينعدم الرضا والاختيار، وتنتفي الإرادة والقصد، وذلك بالوقوع تحت التعذيب الشديد أو نحو ذلك، وهذه الحالة هي التي نزلت فيها آية النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾"[3].

القلب والفؤاد:

"لم يفرّق أهل اللغة بين القلب والفؤاد، بل عرَّفوا كلًّا منهما بالآخر"[4]، ولكنّ الناظر في استعمال القرآن الكريم يجد فرقًا بين القلب والفؤاد من ناحية الاشتقاق؛ ذلك أنّ أصل مادّة القلب تدل على التقلب والحركة، بخلاف مادّة الفؤاد؛ فإنها تدل على التفؤّد والتوقّد؛ فبينهما فرق ظاهر، ومن الأدلة على التفريق بينهما أنَّ أوصاف القلب تختلف

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 377.
(2) ابن عقيل، الواضح: 1/ 81، والتّفتازانيّ، شرح التّلويح: 2/ 395، وابن الهمام، فتح القدير: 232/ 9.
(3) القحطانيّ، الولاء والبراء في الإسلام، ص: 375.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 433.

عن أوصاف الفؤاد، وهذا يدلُّ على الفرق بينهما؛ فوصف القلب بالاطمئنان واللّين والإخبات والوجل إلى غير ذلك من الأوصاف التي اتّصفت بها قلوب المؤمنين، بخلاف أوصاف قلوب الكفار، ومنها الإنكار، والحمية، والانصراف، والمرض، والطبع إلى غير ذلك من أوصاف قلوب الكفار، والآيات في ذلك ظاهرة، وأما الفؤاد فقد وصف بأوصاف أخرى، منها التقلّب والإصغاء والثبات والفراغ، والملاحظ على هذه الأوصاف أنها تختلف عن أوصاف القلب.

ومن الفروق أيضًا: أن لفظ القلب ومشتقاته ورد في السور المكية والمدنية، بخلاف لفظ الفؤاد فإنه ورد في السور المكية فقط، وهذا يدل على أن الله تعالى يخاطب أفئدة الكفار؛ لأنّ الإيمان لم يدخل قلوبهم؛ فإذا دخل في الفؤاد فإنه يدخل في القلب؛ لأنّ الفؤاد هو باب القلب.

ومن الفروق أيضًا: أنّ القلب هو محل التكليف والمخاطبة؛ بخلاف الفؤاد فغير منوط بهذا الأمر، والآيات التي تدلّ على ذلك في القرآن ظاهرة، ولا نحتاج إلى تمثيل لها خشية الإطالة، ومما يؤكد الفرق بينهما استعمال القرآن لهما في آية واحدة في شأن أم موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ [القصص: 10]، ولو كان الفؤاد هو القلب لعبر بالضمير بدلًا من الظاهر، لكن تعبيره بالقلب دليل على الفرق بينهما.

ومن الذين فرقوا بينهما بعض أهل الحديث؛ فقالوا: "الأفئدة: توصف بِالرِّقَّة، والقلوبُ باللين؛ لأن الفؤاد: غِشاءُ القلب، إذا رقّ نفذ القول فيه وخلص إلى ما وراءه، وإذا غلظ تعذَّر وصوله إلى داخله، وإذا صادف القلب شيئًا علق به إذا كان ليّنًا"[1].

الطّمأنينة والسّكِينة:

"الطّمأنينة والسّكينة كلٌّ منهما تستلزم الأخرى، لكنّ استلزام الطّمأنينة السّكينة أقوى من العكس، ثمّ إنَّ الطّمأنينة أعمُّ من السّكينة، وهي على درجات: طمأنينة القلب بذكر الله، وهي طمأنينة الخائف إلى الرّجاء، والطّمأنينة: سكون أمنٍ فيه استراحة أُنْسٍ،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 433.

والسّكينة تكون: حينًا بعد حين، والطّمأنينة لا تفارق صاحبها وكأنّها نهاية السّكينة"[1]، و"السكينة صولة تورث خمود الهيبة الحاصلة في القلب، وذلك في بعض الأوقات فليس حكمًا دائمًا مستمرًا، وهذا يكون لأهل الطمأنينة دائمًا، ويصحبه الأمن والأُنس والاستراحة"[2]، فالطَّمأنينةُ موجبُ السّكينة وأثرٌ من آثارها وكأنّها نهاية السّكينة.

الغضب والسّخط:

"الغَضَبُ يكون من الصغير على الكَبير، ومِن الكَبير على الصَّغير، والسخط لا يكون إلّا من الكَبير على الصَّغير يُقال سخط الأمير على الحاجِب ولا يُقال سخط الحاجِب على الأمير، ويستَعْمل الغَضَب فيهما، والسخط إذا عدَّيته بِنَفسِهِ فهوَ خلاف الرِّضا، يُقال: رضيه وسخطه، وإذا عدّيتَه بـ (على) فهوَ بِمَعْنى الغَضَب"[3].

(1) عدد من المتخصصين، نضرة النّعيم: 7/ 2702.
(2) المباركفوريّ، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 7/ 378.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»